الافـتـــتـاحـيّــة

السياسة والمواطنة: تجربة شخصيّة في أدب الأطفال والناشئة*

لم آتِ إلى عالم أدب الأطفال بقرارٍ سياسيٍّ واعٍ. لكني بقيتُ فيه بقرارٍ سياسيٍّ شديدِ الوعي.

دخلتُ عالمَ الأطفال لسببين مباشرَين: **الأول** لأنّ ابنتيّ، سارية وناي، كانتا تكرهان القراءةَ باللغة العربيّة «بسبب صعوبتها» ـ وهذا ما أغاظني كثيرًا. **والثاني** هو كراهيّتُهما للأكل، حتى اضطررتُ إلى اختراع قصصٍ أسردُها عليهما كلّما جلستا إلى مائدةِ الطعام، فلا أسترسل في السرد ما لم تتناولا لقمةً إضافيّةً؛ ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى راحتا تدعوان صديقاتِهما إلى الأكل في بيتنا، وهما تغريانِهنّ بحكاياتي؛ وإذا بهما تفاجئانني في أحد أعياد ميلادي، وقد سجّلتا، بتحريضٍ من أمّهما/زوجتي السابقة، عددًا كبيرًا من قصصي على شريط كاسيت، ثم دفعتاها إليّ مدوّنةً على الورق بالعاميّة اللبنانيّة، وطلبتا إليّ أن أحوّلَها إلى كتبٍ مصوّرةٍ بالفصحى المبسّطة.

هكذا وجدتُني أتحوّل إلى شهرزاد. لكنّ هدفي لم يكن إنقاذَ الإناث من شهواتِ الرجال، بل إطعامُ الأطفال وتسليتُهم... بالفصحى المبسّطة!

❖❖❖

سوف يقول البعض إنّ السببَ المباشر الأوّل لدخولي عالمَ أدب الأطفال سياسيٌّ في العمق. وهم محقّون في ذلك. فإذا كان صحيحًا أنّ الشعور بالإهانة الشخصيّة هو ما تملّكني حين تيقّنتُ من كرهِ ابنتيّ للّغةِ التي أعتمدُها، منذ عقودٍ، كاتبًا وناشرًا ومعجميًّا ورئيسَ تحرير، فإنّ الصحيح أيضًا أنّ العربيّة هي «لغتي السياسيّة» كذلك إذا جاز التعبير: فيها أكتبُ بياناتِ الحملات السياسيّة التي أنشَطُ في صفوفها، وفيها (وحدها تقريبًا) أنشرُ مقالاتي ضدّ الصهيونيّة وأنظمةِ الاستبداد والفساد العربيّة، وهي أحدُ العناصر الأساسيّة لعقيدتي القوميّة العربيّة واليساريّة، وبواسطتها ناضل أجدادي حملاتِ التتريك والفرنسة، وبها يناضل شعبي اليومَ ضدّ الصهينة والعولمةِ المتوحّشةِ دفاعًا عن أرضٍ ومقدّراتٍ وخصوصيّات.

لذا، فإنّ هَجْسي بتقديم فصحى مبسّطةٍ للأطفال يَقْبع في صميم السياسة الديمقراطيّة، إذا كانت هذه السياسة تعني إشراكَ **أوسع فئات الناس** في صناعة القرار، وضِمْنهم الأطفالُ والناشئةُ الذين لن يلبثوا أن يشبّوا ليكونوا نسخةً عن أهلهم تؤبّد القيمَ السائدة، أو ليكونوا شيئًا مختلفًا عنهم إلى هذه الدرجة أو تلك، تبعًا لتحصيلهم الثقافيّ والحياتيّ.

* نصّ المداخلة التي سألقيها في المؤتمر الدوليّ الثاني الذي يقيمه «تجمّعُ الباحثات اللبنانيّات» في ١٧ حزيران بعنوان «السياسة في أدب الأطفال.»

سماح إدريس

(التتمة صفحة ١٢٥)

(تتمة صفحة ١)

ولا يَخفى عليكم أنّ أدب الأطفال المكتوبَ باللغة العربيّة كثيرًا ما يَشْهدُ عواصفَ متعمّدةً، وأنّ بعض الكتّاب كانوا ومايزالون يستخدمونه لبسطِ عضلاتهم اللغويّة (وأمامَ مَنْ؟ أمامَ الأطفال المساكين؟ يا لَلْبطولة!)، مستمدّين دعمًا علنيًّا وضمنيًّا من المدارس التقليديّة. وعليه، فإنّ مسعايَ إلى تجسير الهوّة بين الفصحى والعاميّة في أدب الأطفال هو في ذاته عملٌ سياسيّ، لأنه يَطْمح إلى إشراكِ جمهورٍ أكبر في صناعة القرار (ولو في المستقبل القريب لا في الحاضر المباشر)، ويَطْمح كذلك إلى الإسهام في تخليص هذا الأدب من قبضةِ نخبةٍ مزعومة.

❖❖❖

لكنْ، مع توسّعي في الاطّلاع على قصص الأطفال العرب، ولاسيّما تلك التي تُفرض عليهم في المدارس، أدركتُ لماذا كانت ابنتاي وأصدقاؤهما يَنْفرون من القصص العربيّة. لم تكن اللغةُ الصعبةُ وحدها هي العائق، بل **العالمُ** الذي تعبّر عنه أيضًا. وبكلام آخر، فإنّ القصص العربيّة التي كانوا يطالعونها، علاوةً على ابتعادها عن اللغة التي يألفونها ويَفْهمونها بيُسر، بعيدةٌ عن العالم الذي يَحْيَوْنه. فكثير من القصص مقتبسٌ من لغاتٍ أخرى عن مجتمعاتٍ أخرى، أو هو إعادةُ صياغةٍ لنصوصٍ عربيّةٍ قديمة. والحقّ أنّ مَنِ اتّخذ قرارًا بالاقتباسِ أو إعادةِ الصياغة، وبترويجهما، أكاتبًا كان أمْ مدرّسًا أمْ مديرَ مدرسة أمْ ناشرًا، ليس بريئًا من الناحية السياسيّة، وإنما يُسْهم، من دون أن يدري أحيانًا، في سَجْن الأطفال ضمن حالتين: حالةِ الاغتراب أو حالةِ الاعتراب (المصطلح الأخير لعبد الله العروي).[1] صحيح أنّ كثيرًا من الأعمال التي تعيد صياغةَ القصص القديمة ذاتُ هدفٍ ترهينيٍّ معاصر، لكنّ المعالجة غالبًا ما تكون أخلاقويّةً وعظيّةً باهتة وغيرَ موفّقة لأنّ الكاتب هنا (والأصحُّ تسميتُه «المدوِّر» أو «المُرَسْكِل») أسيرُ نصٍّ كُتِبَ سلفًا، أو هو لم يبذلْ من الوقتِ والجهدِ ما بذله روائيون مُجيدون في نطاق الرواية العربيّة الحديثة (المكتوبة «للكبار») أمثال جمال الغيطاني وبنسالم حمّيش. حاصلُ الأمر أنّ اللواذَ بالاقتباس عن قصص «الغرب،» أو بإعادةِ صياغةِ قصص «الشرق» صياغةً فقيرةً، يُسهم في إبعاد الطفل العربيّ عن حاضره وعن تطويره ــ وهذا فعلٌ سياسيٌّ واضح.

❖❖❖

على أنّ نفورَ ابنتيّ وأصدقائهما من القصص العربيّة لم يقتصرْ على القصص المقتبسة من الغرب (التي طالعوها بلغاتها الأصليّة ابتداءً) أو الزمنِ العربيّ السحيق، بل ذهب إلى ما وراء ذلك: الى القصص التي تزعم أنها تتناول واقعَنا الحديث. فقد كانت ابنتايَ تسألانني:

مَن هي هذه الأمُّ التي نقرأ عنها في القصص العربيّة يا بابا؟ أمُّنا، والأمّهاتُ اللاتي نعرفُهنّ، لا يجْلين الصحونَ كلَّ الوقت، ولا يطْبخْن كلَّ الوقت، ولا يرتدين المريولَ كلَّ الوقت، ولا يَحُكْن لنا كنزةَ الشتاء كلّ الوقت؛ عاملةُ البيت، الفيليبينيّة أو السيريلانكيّة

(١) يقول: «إنّ الاغتراب بمعنى التغريب أو التفرنج استلاب، لكنّ الاعتراب استلاب أكبر. والتركيز على الخطر الأول ما هو إلا تغطية لوضع ثقافيّ واجتماعيّ معيّن. إنّ السياسة الرسميّة في الأغلبيّة الساحقة من البلاد العربيّة تحارب الاغترابَ بوسيلتين: تقديس اللغة في أشكالها العتيقة، وإحياء التراث.»

أو الإثيوبيّة أو البنغلاديشيّة، هي التي تفعلُ ذلك معظمَ الوقت! ثم أنظرُ يا بابا إلى هذه القصة: أمعقولٌ أن يَهَبَ الملكُ الفقراءَ قصرَه وأراضيَه وثيابَه؟ أهذا ما يفعله الملوكُ العرب؟!

وتفاقمَ الوضعُ خطورةً حين أتتني ابنتي الكبرى سارية، وهي في الصف «الثالث متوسّط،» بكتاب التربية الوطنيّة لكي أساعدَها في حفظ موادّه المثاليّة إلى حدود الكذب الصُّراح. إنه كتابٌ يشْبه كلَّ شيء... إلا لبنان واللبنانيين. كانت سارية بعد كلّ جملةٍ تسألني أسئلةً من قبيل: أصحيح أنّ النائب في البرلمان اللبنانيّ هو نائبُ الأمّة أو الشعبِ اللبنانيّ **كلّه**؟ وإذا كان الحاكمُ يخْدم الشعبَ، فلماذا جارُنا الرئيسُ الفلانيّ لا يسمح لأحدٍ بأن يَركن سيّارتَه في حيّنا على امتداد مئاتِ الأمتار؟ ولماذا بيتُه يشعْشع بالأنوار، فيما بيوتُ الآخرين تَغْرق في ظلامٍ دامس؟ وكيف نقرأ عن «نزاهة الانتخابات» و«العازل الانتخابيّ،» في حين أسمعكَ وقتَ الانتخابات النيابيّة تتحدّث عن شراء الأصوات، وأنّ هذا «قابضٌ» وذاك تلقّى «تنكةَ زيتٍ» رشوةً؟ وإذا كان اللبنانيون «شعبًا واحدًا،» فلماذا انزربْنا في الحمّام في ٧ أيّار ٢٠٠٨ تحت وابل من القذائف الصاروخيّة والقنابل والرصاص؟ ولماذا سمعْنا بآذاننا، ورأينا بعيوننا، في فاريّا، أثناء حرب إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦، مَن كان يهلّل لتخليصنا من «الشيعة»؟

شيئًا فشيئًا رحتُ أدرك أنّ السياسة ليست غائبةً في قصص الأطفال والناشئة وفي كتاب التربية الوطنيّة، بل هي حاضرةٌ بقوّة، وبلا حياءٍ أحيانًا، لصالح صورةٍ وهميّةٍ ورديّةٍ عن كلّ شيء في لبنان، من العائلة إلى الوطن. وتَعَزّز ذلك عندي من ردود أفعال بعض المعلّمين والأهل على قصصي الأولى. فقد ثار هذا البعضُ على تصويري الأمَّ كذّابةً صغيرةً تحتالُ على ابنها لتطعمَه كوسايةً إضافيّةً، زاعمين أنّني بذلك أقوّض من «مثالٍ أعلى» ينبغي أن يضعَه كلُّ طفلٍ نصْبَ عينيه. واستنكر البعضُ الآخرُ قيامَ البطل الصغير نفسِه برمي موزةٍ في سلّة القُمامة، في غفلةٍ عن والديْه، ليفوزَ بالبوظة التي وَعداه بها إنْ أكل الموزة؛ إذ «يُفترض» أن يكون كلُّ طعامٍ من نِعَم العليّ القدير، ورميُ الموزة تحريضٌ على تلك النِّعَم! ثم راحت الامتعاضاتُ ممّا أكتبه تتزايد كلّما اقتربتُ من عالم الفتياتِ والفتيان: فكيف يُمسك مازن يدَ ثريّا في رواية **الملجأ** (٢٠٠٥)؟ وكيف تدسّ ملبّسةً بين شفتيه في عتمة الملجأ؟ وكيف أصِفُ فخذيْ ثريّا الطويليْن، وصدرَها العارمَ «الذي يكاد يتفجّر من

الملفّ القادم: العلمانيون الديمقراطيون وامتحان التغيير

منذ أن أطلق ياسين الحافظ أفكاره الانتقاديّة للتجربة اليساريّة والتجربة القوميّة، وكلا التيارين بتنوّعاتهما يبحثان في أزمتهما، إلى الحدّ الذي علِق في خيال أجيال من المنتمين إليهما أنّ هناك علاقة لا تُفصم بين وجودهما وأزمتهما.

لا يمكن إنكار الدور الذي قام به التياران في الواقع العربيّ، ولكن يمكننا الحديث بلا تردّد عن «فشل كبير» أيضًا، مستعيدين سؤالاً حيّر أجيالاً منذ حرب ١٩٦٧: لماذا هُزمنا؟

واليوم على مشارف مرحلة تاريخيّة سمتُها التغيير، نتساءل عن واقع هذه التيّارات، وندعو إلى قراءة مواقفها وسلوكها وتفاعلها مع التحدّيات العاصفة التي اجتاحت المنطقة.

قمصانها الزاهيةِ الألوان» (ص٢٧ -٢٨)؟ بل كيف أحكي عن الحرب بين اللبنانيين؟ وما دخلُ الناشئة بحروبنا، نحن الكبار؟ أصلاً، ألم تكن تلك حروبَ الآخرين على أرضنا، لا حروبَنا نحن؟

هكذا، وكتابًا في إثر كتاب، راح الامتعاضُ من إدراجي محرّماتٍ «جنسيّة» يُسْند الامتعاضَ من إدراجي محرّماتٍ سياسيّةً عن خلافات اللبنانيين العميقة. وهذا ما عزّز اقتناعي بأننا، كأناسٍ يَنْشدون التغييرَ الشاملَ في واقعهم اللبنانيّ، إزاء معركةٍ واحدةٍ تخاض ضدّ معسكرٍ متعدّدِ الرؤوس: لغويّ، تربويّ، اجتماعيّ، سياسيّ.

❖❖❖

بعيْد عدوان ٢٠٠٦ الذي شنّه العدوُّ الإسرائيليّ على لبنان بذريعة أسْر المقاومة جنديَين إسرائيليَين، أسّستُ مع رفاقي وعائلتي الصغيرة «حملة المقاومة المدنيّة.» كنّا نذهب إلى قرى الجنوب المنكوبة، فنقرأ القصصَ للأطفال (وبعضُهم استُشهد ذووهم)، ونوزّعُ الأدويةَ والبطّانياتِ والمعلّباتِ والملابسَ والخبزَ والطحينَ والألعابَ. كان معظمُنا من المدن، ومن أبناء الطبقةِ الوسطى المتعلّمة، ومن طوائفَ ومذاهبَ ومشاربَ مختلفة، فكانت لنا تجربةٌ فذّةٌ في ممارسة التكافل الوطنيّ؛ ولكننا اكتشفنا أيضًا حدودَ الوطنيّة اللبنانيّة المزعومة. ومن وحي هذه التجربة كتبتُ **فلافل النازحين** (٢٠١١).

تَسْرد هذه الرواية حكاية عائلةٍ من بيروت، مؤلّفةٍ من والدَيْن متعلّميْن ومختلفيْن طائفيًّا، وولديْن (صبيّ وصبيّة). تُقرّر العائلة، بحسّ وطنيّ وإنسانيّ، أن تساعدَ مهجّري العدوان الإسرائيليّ في جنيْنة الصنائع والقرى المنكوبة. لكنّ المواطنيّة ليست مبدأً مجرّدًا بل تطبيقٌ لا يخلو من المصاعب، وأهمُّها صعوبةُ إيثار الآخرين على الذات من أجل مصلحةٍ مشتركة. وقد لامستُ هذا المبدأ على نحوٍ خفيّ في حادثة الطفل رامي ولعبته: فهو تخلّى عن لعبته لأحد الأطفال النازحين، ولكنّ أبا رامي كان قد أصرّ قبل إخراج اللعبة من البيت على أنّ التخلّي عنها لأحد منهم لن يكون بداعي الشفقة، «بل لأنّ ذلك جزءٌ من مسؤوليّتنا تجاه شعبنا» (ص ٣٠).

وفي مقابل المواطنيّة، التي عبّرتْ عن نفسها في التكاتف الاجتماعيّ في جنيْنة الصنائع، عابرةً، إلى حدّ كبيرٍ، الطوائفَ والطبقاتِ والمناطقَ والأعمار، برزتْ في الرواية تعبيراتٌ طائفيّةٌ ومذهبيّةٌ وطبقيّةٌ وذكوريّة تُخلخل أسسَ الوطن (المخلخلةَ أصلاً)، ولاسيّما في

دعوى

أصدرتْ محكمة التمييز الناظرة في استئناف قرارات محكمة المطبوعات في الدعوى المقامة من فخري كريم على سهيل إدريس (مؤسس مجلة الآداب) وعايدة مطرجي إدريس (المديرة المسؤولة في المجلة) وسماح إدريس (رئيس تحريرها) بسبب مقال الأخير بعنوان («نقد الفكر النقدي...») حكمًا اعتبر المقال قدحًا وذمًّا في حقّ المدّعي. كما قضت بنشر خلاصة الحكم في مدة ١٥ يومًا من تاريخ التبليغ. ولمّا كانت موادّ المجلة (التي غدت فصليّة) قد أرسلتْ للطبع، فإنّ المجلة تعتذر عن نشر الخلاصة في هذا العدد، على أن تنشره في العدد القادم.

مواجهة عدوٍّ طائفيّ وعنصريّ ومحتلٍّ ومدجّج بالسلاح. وقد تمثّلتْ هذه التعبيراتُ في عدد من المشاهد، أبرزُها مشهدُ الصبحيّة النسائيّة على سطيْحة أمّ موريس في الضيعة. في هذا المشهد تحرّض النسوةُ أمَّ موريس على زوْج ابنتها المسلم، باستخدام أقوالٍ طائفيّةٍ واستجنابيّةٍ مأثورةٍ مثل: «زوان البلد ولا قمح الغريب،» «اللي بيطّلع برّاتْ تيابو بيبْرُد،» «اللي بتعْرفو أحسن من اللي بتتعرّف عليه،» «اللي بياخُدْ من مِلّة غير مِلْتو بيوقع بعلّة غير علّتو.» المفارقة أنّ أمّ موريس نفسَها كانت في السابق معترضةً على زواج ابنتها جوسلين من عدنان المسلم، وكانت تميل إلى مثل هذه التعبيرات الطائفيّة؛ لكنّ ذلك كان قبل أن تتزوج ابنتُها وتنجبَ وردة ورامي، وقبل أن تختلطَ في جنيْنة الصنائع بالحاجّة عليّة، «الطيّبةِ، المضحكةِ، اللذيذة،» كما تصفها، وقبل أن تدخّنا «نَفَسَ أرجيلةٍ معًا» (ص ٧٣). ولذا تردّ أمُّ موريس على صديقاتها الطائفيّات بنبرةٍ حادّةٍ:

«بعض الأمثال معفّنة وطالعة ريحتها... وبعدين شو دخل 'قمح الغريب' يا إمّ ميشال؟ المسلم غريب؟ المسلم مشْ لبناني متلي ومتلك، ولاّ إجا من المرّيخ؟ ومين طِلِعْ برّات تيابو يا إختي؟ إذا بنتي تزوّجتْ إستاذْ مدرسة كان معها بالجامعة، بتحبّو وبيحبّها، وبتعرفو أكترْ من كلّ ولاد الضيعة، بتكون تزلّطتْ وطلعتْ من تيابها؟... وبعدين شو بتعرفو وبتتعرّف عليه، ومِلّتو وعلّتو، وصِفتو ونِعتو، يا إمّ عبدو؟ ولِكْ شو صاير فيكن؟ العمى شو صايرين دِه موده. نارهْ يا ماريّا! انسمّ بدني، وحياة العدرا! غيّروا الحديث من شان اللّه!»

هنا نلاحظ أنّ الشعور بالمواطنة لم يأتِ أمَّ جوسلين نتيجةً للثقافة، وإنّما نتيجةً للاندماج العائليّ أولاً (زواج ابنتها من حبيبها المسلم) والانخراط الوطنيّ في مواجهة آثار العدوان الإسرائيليّ ثانيًا. وإذا كان لي أن أقفَ موقفَ الناقد الأدبيّ من عملٍ أنا كاتبُه، وهو موقفٌ غريبٌ بعضَ الشيء، فلكي أقولَ إنّ المواطَنة، على ما يوحي الخطابُ المضمرُ في **فلافل النازحين**، ليست موقفًا عقليًّا مجرّدًا، بل خلاصةُ تجربةٍ حياتيّة، أتاحها ويسّرها النشاطُ السياسيُّ المدنيُّ العابرُ للطوائف والمذاهب والطبقات.

❖❖❖

على أنني لا أستطيع أن أنهي الحديثَ عن المواطنيّة في الأدب الذي قدّمتُه للأطفال العرب من دون التطرّق إلى مسألة الجندر. فأعداءُ المواطنيّة لا يقتصرون على الطائفيّين والمذهبيين وحدهم، بل إلى هؤلاء ينضمُّ أيضًا الذكوريّون المتسلّطون على حقوق الآخرين، ولاسيّما النساء، إذ يستحيل بناءُ مجتمع المواطنين بوجود مضطهَدين ومضطهِدين. وقد انشغلتْ **فلافلُ النازحين** بإبراز المعايير المزدوجة التي يملكها عدنان، الناشطُ المعادي للطائفيّة: ففي حين يَحْشد قواه، وقوى رفاقه في حملته المدنيّة، وقوى عائلته الصغيرة، لمؤازرة النازحين، فإنه، بحسب زوجته على الأقلّ، لا يمارس المساواةَ داخل بيته بالذات. فأيُّ مواطنيّةٍ هي تلك التي تعْبر الطوائفَ والطبقات، ولكنّها ترسّخ اللامساواةَ بين الجنسين؟!

بيروت